الطبع والصنعة عند ابن الأثير
في كتابه: "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"

د. محمد محمد مولود الأنصاري*

المقدمة:

يبدو أن قضية الطبع والصنعة التي أثارها كبار نقاد القرن الثالث الهجري من أمثال: الجاحظ وابن قتيبة، لم تكتمل حلقاتها، ولم تغلق أبوابها بعد، إذ ولج بابها نقاد القرون التالية، فتناولوها بالشرح والتحليل والنقد والإيضاح، فكان أن ظهر في القرن السابع الهجري البلاغي الجليل والناقد الفذ/ضياء الدين ابن الأثير(1)، الذي تميّز بأسلوبه الجيد، وطريقته الفريدة في طرح القضايا البلاغية والنقدية؛ فاستقل بالرأي في بعض المسائل، وردّ آراء بعض العلماء قبله؛ بل وأحيانا يتعجب كيف سلكوا هذا المسلك، وانتهجوا هذا النهج، وقد رأى الباحث أن يدرس: "**الطبع والصنعة عند ابن الأثير في كتابه: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**".

-منهج الدراسة:

اتبعت في هذه الدراسة **المنهج الاستقرائي الوصفي**، مقارنًا أحيانًا بين ابن الأثير وغيره من النقاد في هذه القضية، إذ يقتضي الحال ذكر وجهات نظر غيره من النقاد؛ ليعلم مواطن الاتفاق والاختلاف في ذلك.

-الدراسات السابقة:

وجدت دراسة عن ابن الأثير تتناول المباحث البلاغية والنقدية عنده وعند العلوي، بعنوان: **(من مباحث البلاغة والنقد بين ابن الأثير والعلوي)**، للدكتور: نزيه عبد الحميد فراج، مكتبة وهبة، القاهرة، وقد طبعت عام: 1997م.

---

* عضو هيئة التدريس، بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، بالجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا.

(1) هو "نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، ابن الأثير ضياء الدين أبو الفتح الجَزَرِي... وُلِدَ بالجزيرة، ونشأ بها، وانتقل مع والده إلى الموصل، واشتغل وحصل العلوم وحفظ القرآن وشيئًا من الحديث، وطرفًا من النحو واللغة وعلم المعاني والبيان...، ولابن الأثير "كتاب: الوَشي المرقوم في حل المظلوم"، و "كتاب: المعاني المبتدعة"، وله "غرّة الصباح في أوصاف الاصطباح"، و"كتاب: الأنوار في مدح الفواكه والثمار"، وله غير ذلك، ونظمه قليل جدًّا، كان مولده سنة ثمانين وخمسمائة، وتوفي سنة: سبع وثلاثين وستمائة". (ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تح: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، 27/24-25. دار إحياء التراث العربي، ط/1، 2000م).

ويبدو أن صاحب الكتاب ركّز جل اهتمامه على المباحث البلاغية، ولم يتوسع في دراسة القضايا النقدية عند الناقدين، فلم يتطرق المؤلف إلى قضية الطبع والصنعة في كتابه، إلا ما كان عرضًا غير مقصود لذاته، في حين توسع في دراسة السرقات الشعرية واللفظ والمعنى عند الناقدين.

كما أن هناك دراسة أخرى عن ابن الأثير عنوانها: (**البلاغة القرآنية عند ضياء الدين ابن الأثير: دراسة وتقويم**)، للدكتور جاسم سليمان الفهيد، وركزت الدراسة على المناحي البلاغية، فتناولت معايير فصاحة الألفاظ القرآنية، وبلاغة التقديم والتأخير في النظم القرآني، وأساليب التوكيد والمبالغة في القرآن الكريم، وبلاغة الاستعمال القرآني لحروف العطف وحروف الجر، وبلاغة العدول عن الأصل في النظم القرآني وغير ذلك. ينظر: حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت، المجلد:(32)، العدد: (356) لسنة: 2012م.

وتوجد – أيضًا- دراسة نقدية أخرى، بعنوان: (**في المنهج النقدي عند ابن الأثير في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**)، للدكتور: وفيق محمود سليطين، وريان عبد المجيد جلول، تحدثت الدراسة عن "قضية اللفظ والمعنى" عند ابن الأثير، والذوق، ونظرية الكتابة والتأصيل والتجديد وغير ذلك، ويلحظ أن البحث -أيضًا- أغفل دراسة الطبع والصنعة. يجدر بالذكر أن البحث منشور في مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، نصف سنوية، العدد: الواحد والعشرون، جامعة تشرين – اللاذقية: سوريا، ربيع وصيف/2015م، ص: 113-134.

-أهمية هذه الدراسة وأهدافها:

تسعى هذه الدراسة إلى بيان كيف درس ابن الأثير الطبع والصنعة في كتابه المثل السائر، وإظهار نقاط الاتفاق والاختلاف بينه وبين غيره من النقاد في هذا الشأن، ومعرفة الجديد له في هذه القضية.

-الطبع والصنعة عند اللغويين والنقاد:

استنادا إلى القاعدة الأصولية التي تقول: "الحكم على الشيء فرع عن تصوره"، فإنه يجدر بنا النظر في ماهية كلٍّ من الطبع والصنعة عند أهل اللغة، وفي اصطلاح أهل الاختصاص، ولنبدأ بالطبع ابتداءً، ثم بالصنعة.

الطبع عند أهل اللغة:

ورد في لسان العرب: "(طبع) الطبْعُ والطَّبِيعةُ الخَلِيقةُ والسَّجيّةُ التي جُبِلَ عليها الإِنسان، والطِّباعُ كالطَّبِيعةِ مُؤَنثة ....، والطبْعُ: الختْم، وهو: التأْثير في الطين ونحوه ....، قال أَبو إِسحق النحوي: معنى طبع في اللغة وختم واحد، وهو التغْطِيةُ على الشيء والاسْتِيثاقُ من أَن يدخله شيء"(1).

وقد نقل الزبيدي في تاج العروس عن ابن الأثير معنى هذه اللفظة فقال: "قال ابنُ الأَثِيرِ: كانوا يَرَوْنَ أَنَّ الطَّبْعَ هو الرَّيْنُ"(2)، ثم قال صاحب التاج: "وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿كَلاّ بلْ رانَ على قُلوبِهِمْ﴾(3)، مَعناهُ غَطَّى على قُلوبِهِم ... قال مُجاهِدٌ: الرَّيْنُ أَيسر من الطَّبعِ، والطَّبعُ أَيسرُ من الإِقفالِ، والإِقفال: أَشَدُّ من ذلكَ كُلِّه، قلتُ: والّذي صَرَّحَ به الرَّاغِبُ أَنَّ الطَّبْعَ أَعَمُّ من الختْمِ"(4).

مما سبق يظهر أن معاني الطبع في اللغة تدور بين: السجيّة، والطبيعة، والخليقة، والختم، والرين، ويلحظ أن القاسم المشترك بينها هو: الثبات والاستمرار على حال واحدة، كما يلحظ أن تفسير ابن الأثير للطبع في هذا الموضع تفسير لغوي محض، لا علاقة له بالمعنى الاصطلاحي، وسيتبيّن فيما يلي كيف أنه وظَّف هذا التفسير في التعريف الاصطلاحي.

يجدر بالذكر أنّ الباحث: مصطفى درواش وضع ملحوظات استخلصها من المعنى اللغوي للطبع عند ابن منظور، فقال: "(مادة: ط ب ع) في معجم لسان العرب بصيغها المتعددة تشملها صفات يمكن حصرها فيما يلي:

(أ) ليس الطبع فعلًا إنسانيًّا إراديًّا.

(ب) يدل على العقاب جرّاء سلوك منحرف.

(ج) يرمز إلى السلوك القويم والانضباط التّام.

---

(1) لسان العرب: لابن منظور الأنصاري، مادة:(طبع). دار الحديث – القاهرة، د.ط، 2002م.

(2) تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تح: مجموعة من المحققين، مادة :(طبع)، دار الهداية، د.ط.

(3) سورة المطففين، الآية: 14.

(4) تاج العروس: الزَّبيدي، مادة: (طبع).

(د) يعني الفطرة التي جبل عليها الإنسان..."[1].

ويبدو أن (أ) و(د) يخرجان من مشكاة واحدة، فالفطرة هي الخلق الذي جبل الإنسان على فعله، فهي كذلك ليست فعلًا إنسانيًّا إراديًّا، والدليل ما ورد في حديث وفد عبد القيس ... عن زارع -رضي الله عنه- قال: "لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَجَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا فَنُقَبِّلُ يَدَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وَرِجْلَهُ -قَالَ- وَانْتَظَرَ الْمُنْذِرُ الأَشَجُّ حَتَّى أَتَى عَيْبَتَهُ فَلَبِسَ ثَوْبَيْهِ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا». قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ."[2].

فالجبلة والطبيعة والفطرة بمعنى واحد، وتعني الفعل إذا جاء عفويا من غير تعب واجهاد، فهي تختلف عن التخلّق الذي فيه الجهد والمشقة.

-الصنعة عند أهل اللغة:

تحدث الجوهري في قاموسه عن مادة: (صنع)، فقال: "الصُنْعُ بالضم: مصدر قولك: صَنَعَ إليه معروفًا. وصَنَعَ به صَنيعًا قبيحًا، أي: فعل. والصِناعَةُ: حرفةُ الصانعِ، وعمله الصَنْعَةُ، وصَنْعَةُ الفرسِ أيضاً: حُسْنُ القيام عليه، تقول منه: صَنَعْتُ فرسي صَنْعاً وصَنْعَةً، فهو فرسٌ صَنيعٌ...، وامرأةٌ صَناعُ اليدين، أي: حاذقةٌ ماهرةٌ بعمل اليدين...، والتَصَنُّعُ: تكلّف حُسْنِ السَمتِ"[3].

ويلحظ أن المعنى اللغوي لهذه اللفظة يدل على إتقان صنعة ما؛ بسبب بذل الصانع الجهد والوقت؛ للوصول إلى المهارة المطلوبة، فالمشقة والإتقان حاضران في الصنعة، فهي: حرفة الصانع، ويقال للمرأة: صناع اليدين، أي: حاذقة ماهرة بعمل اليدين، ويبدو من المعنى اللغوي أنها لا تكون إلا في أعمال اليد، أي: في الأشياء المحسوسة فقط.

---

(1) خطاب الطبع والصنعة –رؤية نقدية في المنهج والأصول، مصطفى درواش، ص: 16، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق: 2005م.

(2) سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، 525/4، دار الكتّاب العربي ـ بيروت. قال الألباني: حسن دون ذكر الرجلين.

(3) الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، مادة: (صنع)، دار العلم للملايين -بيروت، ط/4، 1990م.

ذكر درواش أنّ "الصنعة: هي تعلُّم، وتجربةٌ، وحرفةٌ، وممارسةٌ منظمةٌ وإتقانٌ، وبراعةٌ، لأنها لا تحصل إلا بالتعهد الذي يعد ركيزتها الأولى"[1].

وما قاله درواش خلاصةٌ لما سبق من التعريفات اللغوية عند أهل المعاجم، ويظهر الفرق جليّاً بين الطبع والصنعة في اللغة في حديث بني عبد القيس من قول أشج عبد القيس للنبي صلى الله عليه وسلم، حينما أثنى على خُلُقه: "قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا قَالَ: «بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا». قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ"[2].

فلفظة (أتخلّق) تعني: التصنع، والصنعة، وهي قريبة من المعنى اللغوي لصاحب (الصحاح): "والتَصَنُّعُ: تكلّف حُسْنِ السَمتِ"[3]، في حين نَجِدُ أنّ معنى قولِه: "جَبَلَنِي عليهما": طَبَعَنِي، فالجِبِلّةُ بمعنى: الطبيعة والطبع، أي: أنّه طُبِعَ عليهما.

-الطبع والصنعة عند ابن الأثير:

تحدث ابن الأثير في كتابه المثل السائر عن قضية الطبع والصنعة، فأشار إلى أهمية الطبع في شعر الشاعر، أو نثر الكاتب على السواء، فهو يرى أنّ الشعر أو النثر يأتيانِ العربيَ بالطبع دون تعمل وتمحل، قال: "إن سلّمت إليك أن الشعر والخطابة كانا للعرب بالطبع والفطرة ..."[4].

فابن الأثير هنا يردُّ على أحدهم، فيسلّم له بأن الشعر والخطابة للعرب إنما كانا بالبديهة والارتجال والفطرة، وهو أمر معروف عند النقاد منذ القرن الثالث الهجري، فابن قتيبة عرّف المطبوع وهو الموصوف بالطبع، فقال: "المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر، واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبّينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة، وإذا امتحن لم يتعلثم ولم يتزحر"[5].

---

(1) خطاب الطبع والصنعة -رؤية نقدية في المنهج والأصول-، ص: 28.

(2) سنن أبي داود، 525/4.

(3) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، مادة: (صنع).

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، 4/2، دار نهضة مصر-الفجالة- القاهرة ، ط/2، د.ت.ط.

(5) الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء: ابن قتيبة، تح: د. مفيد قميحة، وأ. نعيم زرزور، ص: 37، المكتبة العلمية، د.ط.

ويبدو أن العبارة الأخيرة لخصت الأمر "وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر"، بمعنى: أنه إذا طلب منه الإنشاد كان حاضرًا جاهزًا لذلك، بشرط أن يكون دون تكلف أو تزحر، وقد وافق ابنُ الأثير ابن قتيبة في تعريفه للطبع، ورأى أنّ من علامات الطبع البديهة والعطاء عند الطلب، والإنشاد ساعة الإرادة من غير تعمل ولا تمحل، وقد جعل من قصة الحريري آية على ذلك.

وينقل ابن الأثير عن بعضهم القول بأن الطبع من صفات العربي البدوي، فكما أن لغيرهم من الشعوب طبائع يتسمون بها، ويتميزون بها فهم كذلك، فقال: "فإن قيل إن ذلك البدوي كان له ذلك طبعا وخليقة، والله فطره عليه كما فطر ضروب نوع الآدمي على فِطَرٍ مختلفة، هي لهم في أصل الخلقة، فإنّه فطر الترك على الإحسان في الرمي، والإصابة فيه من غير تعليم، وكذلك فطر أهل الصين على الإحسان في صنعة اليد فيما يباشرونه من مصوغ، أو خشب، أو فخار، أو غير ذلك، وكذلك فطر أهل المغرب على الشجاعة، وهذا لا نزاع فيه، فإنه مشاهد"[1].

ويظهر أن ابن الأثير حين ذكر هذا الكلام لم يرد التسليم به، وإنما ساقه؛ لدحضه، وبيان خطئه، والدليل على ذلك أنه أتى بإيراد ينفي صحة هذا القول حين قال: "فماذا تقول فيمن جاء بعدهم من شاعر وخطيب تحضروا وسكنوا البلاد، ولم يروا البادية ولا خُلقُوا بها، وقد أجادوا في تأليف النظم والشعر، وجاءوا بمعان كثيرة ما جاءت في شعر العرب، ولا نطقوا بها؟ ..."[2].

فهو ينفي اقتصار الجودة في تأليف النظم والشعر على أهل البادية ممن يغلب عليهم الطبع في نظمه، فذكر أنّ ذلك مما يشترك معهم فيه غيرهم، فلا دخل للبداوة في ذلك، وإنما تلك جبلة يجعلها الله فيمن أراد، سواء في الحضر أو البادية، كما يفهم من كلامه هذا أنه لا يفضّل القديم؛ لقدمه ولا يؤخر المحدث؛ لتأخره، وذلك لأنه جعل صفة الطبع التي هي صفة إبداع وتفوق صفة مشتركة بين القدامى والمحدثين، فلا فرق بينهم فيها إلا من حيث تفاوتهم في الحسن والإجادة.

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/3-4.

(2) المصدر نفسه، وكذا المجلد والصفحة.

وقد سبقه إلى هذا القول الجاحظ الذي أقرّ بأنّ من المولدين من يتصف بالطبع، فقال: "والمطبوعون على الشعر من المولدين: بشار العقيلي، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عيينة، وقد ذكر الناس في هذا الباب: يحيى بن نوفل، وسلمًا الخاسر، وخلف بن خليفة، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء، وبشار أطبعهم كلهم"(1).

فالطبع على هذا صفة مشتركة بين الشعراء القدامى والمحدثين، وهي على كل حالٍ صفة حسن لمن أجاد التعبير وأحسن الصياغة.

وما ذهب إليه الجاحظ وابن الأثير من اتصاف بعض المولدين بالطبع يدل على أنهما ممن يتصف بالحياد والروح العلمية في النقد الأدبي، نخالفا بذلك من ذهب إلى تقديس القديم لقدمه، وتأخير الحديث لتأخره.

-تفريقه بين الصنعة والتكلف (التطبع):

يجدر بالذكر أن ابن الأثير وصف الطبع بالخفة كما وصف التطبع بالثقل، وهما وصفان متضدان، الأول: وصفُ حُسْنٍ، والثاني: وصفُ قُبْحٍ. يقول ابن الأثير: "وقد جاءني شيء من ذلك عليه خفّةُ الطبع، لا ثِقَلُ التطبُّع"(2).

ويبدو أن التطبع يرادف التكلف لا الصنعة؛ لأنه فرّق بين الاصطلاحين في موضع آخر، إذ يقول: "فإنّ الكُلْفَة وحشة تذهب برونق الصنعة ..."(3).

فلو كانت الصنعة والكلفة بمعنى واحد لما قال ذلك، وعليه فالتكلّف من عيوب الشعر؛ لما ينتج عنه من تكلف للزحافات، والصور الغريبة المستهجنة البعيدة عن الأفهام، أما الصنعة فلها رونقها، الذي تتزين به القصائد، وتحلو به أبياتها وتزدان، فليست الصنعة بعيب في الكلام، والا لكان شعر أصحاب الحوليات مستهجنًا قبيحًا، ولم يقل أحد بذلك، وقد ألحقوا مَنْ شأنُه تهذيبُ شعره، ومراجعتُه، وتنقيحُه بزهير والحطيئة ممن أطلق عليهم الأصمعي اسم:(عبيد الشعر)(4)؛ لأنهم انشغلوا بتنقيح أشعارهم

---

(1) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر، تح: المحامي فوزي عطوي، ص: 41، دار صعب- بيروت، ط/1، 1968م.

(2) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 288/1.

(3) المصدر نفسه: 283/1.

(4) ينظر: البيان والتبيين، ص: 219.

وتهذيبها، على ألا يصحب ذلك تكلف يجعل من الشعر طلاسم معقدة، يصعب فهمها وتذوقها.

والصنعة ليست مرادفة للطبع عند ابن الأثير، كما أنهما ليستا في مرتبة واحدة، إلا أنهما مما يستحسن من الكلام إذا جاءتا عن سماح وروية، بخلاف التكلف الذي لا مزية له، يقول ابن الأثير متحدثًا عن حال العربي والشعر ذاكرًا أنه: "غير مهتدٍ إلى استعمال ذلك بصنعته، وإنما يجئ له منه ما يجئ بطبعه لابتكلفه"(1).

يلحظ أنه ذكر المصطلحات الثلاثة (الصنعة، الطبع، التكلف)، فالعربي -جاهليًا كان أو إسلاميًا - غيرُ مهتدٍ إلى استعمال الشعر بـ(صنعته)، وإنما يأتي شعره بـ(الطبع) لا بـ(التكلف)، وذلك مما يقع فيه الإشكال، إذ يستثني من ذلك زهيرًا والحطيئة وأضرابهما، ممن نتصف أشعارهم بالصنعة، ويُجاب عن ذلك بأنه إنما أراد الكثير الغالب، والنادر لا يرد عليه، لقلّته، والله أعلم.

ومما يدل أيضا على أنّ ابن الأثير فرّق بين التكلف والصنعة ثناؤه على أبيات لأبي نواس، في باب: (لزوم ما لا يلزم)(2) حين قال(3) [من الرمل]:

أُتْرُكِ الأَطْلاَلَ لاَ تَعْبأْ بِهَا **** إِنَّهَا مِنْ كُلِّ بُؤْسٍ دَانِيَهْ
وَانْعَتِ الرَّاحَ عَلَى تَحْرِيمِهَا **** إِنَّمَا دُنْــيَاكَ دَارٌ فَانِـيَهْ
مِنْ عُقَارٍ مَنْ رَآهَا قَالَ لِي **** صِيدَتِ الشَّمْسُ لَنَا فِي آنِيَهْ

فقال: "... فانظر: أيها المتأمل، ما أحلى لفظ أبي نواس في لزومه! وما أغراه عن الكلفة! وكذلك فلتكن الألفاظ في اللزوم وغيره"(4).

فوصَفَ الأبيات بأنها بعيدة عن التكلف الذي يعني: رداءة اللفظ، وسوء اختيار المعنى، وهذا يخالف الصنعة التي تعني تنقيح الشعر وترتيبه وتثقيفه؛ ولذلك نراه يصف أبياتاً أخرى لبعضهم قائلا: "وهذا من محاسن الصنعة في هذا الباب فاعرفه"(1).

---

(1) المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب: 153/3.

(2) (لزوم ما لا يلزم): "وهو أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع"، الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تح: الشيخ بهيج غزاوي، ص: 367، دار إحياء العلوم- بيروت: 1998م.

(3) ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تح: إيقالد قاغنر، 345/3-346، ط/1، دار صادر- بيروت، 1988م، وصدر البيت الثاني ورد في الديوان هكذا: واشرب الخمر على تحريمها ...

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 288/1-289.

ويبدو أن ابن الأثير بتفريقه بين الصنعة والتكلف فاق غيره من النقاد، ممن لم يفرق بين المصطلحين، ومن بينهم ابن قتيبة الذي استعمل مصطلح التكلّف مرادفًا للصنعة، حين قال: "ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف: هو الذي قوّم شعره بالثقاف، ونقّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة"(2).

فأطلق ابن قتيبة التكلف وأراد به الصنعة؛ لأنه ليس من اللائق أن يصف أشعار زهير والحطيئة بالتكلف الذي يعني: الرداءة والتأخر؛ بسبب إطالة إعمال الفكر، وكثرة الضرورات، وشدة العناء، وهي عيوب كلها(3).

ويوضح ابن الأثير الفرق بين الشعر المتكلف وغير المتكلف، فيقول: "أما المتكلف فهو: الذي يأتي بالفكرة والروية، وذلك أن يُنضَى الخاطرُ في طلبه، ويُبعثُ على تتبعه واقتصاص أثره"(4).

فقوله: "ينضى الخاطر في طلبه" فيه معنى المشقة والإجهاد أي: أنه يكد الذهن والخاطر من أجل الوصول إلى الفكرة والخاطرة، وهذا ليس ببعيد عن تحديد ابن قتيبة والجاحظ للتكلف.

ويبدو أن الجاحظ أيضا لم يفرّق بين الصنعة والتكلف؛ إذ قرن بينهما، وجمع في بعض المواضع من البيان والتبيين، فقال: "وقال ثُمامة: قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ قال: أن يكون الاسمُ يحيط بمعناك، ويجلّي عن مَغزاك، وتُخْرِجَه عن الشِّرْكة، ولا تستعين عليه بالفِكرة، والذي لا بُدّ له منه، أن يكون سليماً من التكلُّف، بعيدًا من الصّنعة، بريئًا من التعقُّد، غنِيًّا عن التأويل"(5).

فجعل من شروط البيان أن يكون سليما من (التكلف) بعيدًا من (الصنعة)، وقد أكّد هذا الأمر بما نقله من كلام بعضهم عن شعر زهير والحطيئة، فأقرَّه ولم يردّه فقال: "وكان يُقال: لولا أنَّ الشّعرَ قد كان استعبَدَهم، واستفرغ مجهودَهم حتّى أدخلَهم في

---

(1) المصدر نفسه: 289/1.

(2) الشعر والشعراء، لابن قتيبة: ص: 29.

(3) ينظر: المصدر نفسه: ص: 36.

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 288/1.

(5) البيان والتبيين، ص: 71.

باب التكلُّف، وأصحاب الصنعة، ومَن يلتمِسُ قَهْرَ الكلام، واغتصابَ الألفاظ، لذهبوا مذهبَ المطبوعين"(1).

ثم إنّ ابن الأثير شرع بعد الكلام عن التكلف في الحديث عن الكلام غير المتكلف، فقال: "وغير المتكلف يأتي مستريحًا من ذلك كلّه، وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب في إنشاء خطبته أو كتابته، فبينا هو كذلك إذْ سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق، لا بالسعي والطلب"(2).

فهو يريد أن يقول: إن الشاعر أو الكاتب أو الخطيب إذا أرادوا التعبير عمّا في مكنونهم جاءتهم المعاني والألفاظ سهلة دون عناء ومشقة، وهو ما عبّر عنه بقوله: "وغير المتكلف يأتي مستريحا من ذلك كلّه"، وقوله: "سنح له ... بالاتفاق لا بالسعي والطلب".

ويوافق ذلك ما قاله آنفا من أن الشعر والخطابة كانتا للعربي بالطبع والفطرة، أي: بالبديهة والارتجال، فتأتي الألفاظ دون تكلف وتنثال المعاني انثيالًا، وهذه الصفات نفسها ذكرها ابن قتيبة قبله.

وبسبب ذلك فإن ابن الأثير يرى أنّ أشعار العرب التي جاءت عن إسماح وطبع، لا تجد فيها بعض المحسنات البديعية التي تكون بإحكام الصنعة والتعمق في اختيار الألفاظ، وجعل ذلك غاية يتوصل بها إلى الزخرفة اللفظية، والبهرجة الشكلية، وفي سياق ذلك ذكر أن(الترصيع)(3)، وهو فن بديعي لا تكاد تجده في أشعار المطبوعين؛ لأنّ الصنعة فيه بيّنة وواضحة.

قال في ذلك: "وأما الشعر فإني كنت أقول: إنه لا يتزن على هذه الشريطة، ولم أجده في أشعار العرب؛ لما فيه من تعمق **الصنعة**، وتعسف **الكُلْفة**، وإذا جيء به في الشعر لم يكن عليه محض الطلاوة التي تكون إذا جيء به في الكلام المنثور"(4).

---

(1) المصدر نفسه، ص: 219.

(2) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 288/1.

(3) الترصيع عند البلاغيين هو: "أن تكون الألفاظ المتقابلة في السَّجْعَتَيْن متفقةً في أوزانها وفي أعْجَازِها، "أي: في الحرف الأخير من كلّ متقابلين فيها"، البلاغة العربية: أسسها، وعلومها، وفنونها، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، 505/2، دار القلم -دمشق، والدار الشامية - بيروت، ط/1: 1996م.

(4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 278/1.

والتصريع الذي قصده ابن الأثير ليس التصريع العروضي، الذي يعني استواء عروض البيت وضربه في الوزن، وفي الإعراب، والتقفية؛ بشرط أن تكون العروض قد حدث فيها تغيير عن أصلها؛ لتلحق الضرب في زنته[1].

وهذا التصريع تجده كثيرًا في مطالع قصائد الجاهليين، ومن جاء بعدهم، ولا يعدّ من باب التكلف أو الصنعة؛ وإنّما الذي يجعل في باب التكلف هو التصريع البديعي.

ويُفهمُ من قوله: "... لما فيه من تعمّق **الصنعة**، وتعسف **الكُلْفة**..."[2]، أنّ مِن الصنعة ما يتحدر؛ ليصل إلى درجة التكلف، ولكن لا يعني ذلك أنهما من درجة واحدة؛ لِمَا سبق من بيان الفرق بينهما عنده؛ لكن يبقى معرفة ما يندرج تحته قوله: "وغير المتكلف..."، ولعلّه يقصد به غير الرديء سواء كان طبعا أو صنعة، وأما كونه بمعنى الطبع؛ فلقوله: "فإذا فعلت ذلك، فإنّه هو الذي يذم من السجع ويستقبح؛ لما فيه من التكلف والتعسف، وأما إذا كان محمولاً على **الطبع غير متكلف،** فإنه يجيء في غاية الحسن، وهو أعلى درجات الكلام"[3].

فوصفه الكلام بأنه إذا جاء محمولا على الطبع غير متكلف، فإنّه يكون في غاية الجودة، فـ(**غير متكلف**) بيانٌ للطبع وتفسيرٌ له، وهذا يبرهن على أنّهما هنا مترادفان، و(غير المتكلف) أيضا قد يراد به: (الصنعة)؛ ومما يستدل على ذلك، قوله: "فإنَّ **الكُلْفَة** وحشةٌ تذهب برونق **الصنعة**"[4]، فالكُلْفَةُ منافيةٌ للصنعةِ، ومن ثَمَّ فإنّ انتفاءَها في الكلام يلائم الصنعةَ.

وقد ذهب إحسان عباس إلى تقسيم الصنعة إلى نوعين: نوع قريب من الطبع وهو محمود، ونوع قريب من التكلف، وهو مذموم، يقول: "وهذا يعني أن الطبع يشمل القول على البداهة مثلما يشمل "الصنعة الخفية"، التي لا تظهر على وجه الأثر الفني، فإذا قلت:"شعر متكلَّف"-بفتح اللام المشددة-...، وهذا يقابل ما نسميه: "رداءة الصنعة"[5].

---

(1) ينظر العمدة في صناعة الشعر ونقده: لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تح: الدكتور: النبوي عبد الواحد شعلان، ص: 277، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط/1، 2000م.

(2) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 278/1.

(3) المصدر نفسه: 213/1.

(4) المصدر نفسه: 283/1.

(5) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، لإحسان عباس، ص: 109، دار الثقافة، بيروت -لبنان، ط/4، 1983م.

وبهذا يتبين أن التكلف والصنعة يختلفان عند ابن الأثير في بعض الأحيان، وقد يترادفان، فالصنعة عنده درجات فأعلى درجاتها يدنو من الطبع، وأقلها يقرب من التكلف، والطبع يختلف عنهما في أنّه يشمل القول على البداهة الذي يعني الصنعة الخفية كما ذكر إحسان عباس.

إشارات ختامية:

1- استطاع ابن الأثير بذوقه الأدبي واطلاعه المعرفي أن يفرّق بين ثلاثة من المصطلحات النقدية التي اختلف النقاد في تحديدها، وهي:(الطبع، والصنعة، والتكلف).

2- لم يختلف مع من سبقه من النقاد كابن قتيبة والجاحظ في تحديد مصطلح (الطبع)، ووافقهم أيضا في أن الطبع ليس مختصا بالقدامى، وإنما هو مما يشترك فيه القدامى والمحدثون على السواء، وأنّ الإجادة في الشعر ليست مختصة بالعرب الأُوَلِ فقط، إذ اتصف أيضا بها المحدثون أمثال: مسلم بن الوليد، والبحتري، وأبي نواس وغيرهم.

3- التكلف عنده يعني: رداءة الكلام وتأخره، وهي صفة قُبحٍ في الكلام، وهو ضد الطبع والصنعة؛ إلا أنّ من الصنعة ما يصل إلى حد التكلف في القبح.

4- الصنعة عنده درجات، منها ما يدنو من الطبع إذ أجاد الشاعر، ومنها ما قد يفوقه كما في شعر أصحاب الحوليات، كزهير والحطيئة، ومنها ما يكون والتكلف سيان، فالصنعة قد تكون من محاسن الكلام، وقد تكون من معايبه، والمعيار في ذلك حسن الاستعمال من عدمه.

قائمة المصادر والمراجع:

أولًا- القرآن الكريم.

ثانيًا- الكتب:

1- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تح: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم- بيروت: 1998م.

2- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم- دمشق، والدار الشامية – بيروت، ط/1، 1996م.

3- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر، تح: المحامي فوزي عطوي، دار صعب- بيروت، ط/1: 1968م.

4- تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ط.

5- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، لإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط/4: 1983م.

6- خطاب الطبع والصنعة –رؤية نقدية في المنهج والأصول-، لمصطفى درواش، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق : 2005م.

7- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تح: إيقالد قاغنر، ط/1، دار صادر- بيروت: 1988م.

8- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي - بيروت، د.ط.

9- الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء، لابن قتيبة، تح: د. مفيد قميحة، أ. نعيم زرزور، المكتبة العلمية، د.ط.

10- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية: لإسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين- بيروت، ط/4: 1990م.

11- العمدة في صناعة الشعر ونقده، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تح: الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط/1: 2000م.

12- لسان العرب، لابن منظور الأنصاري، دار الحديث- القاهرة، مصر، د.ط: 2002م.

13- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر- الفجالة- القاهرة، ط/2، د.ت.ط.

14- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط/1: 2000م.